***Dirasat***: Human and Social Sciences, Volume 52, No. 2, 2025

Deanship of Scientific Research

# Quantum Physics and the Margin Revolution: Ahmed Abu Salim's Novel "Quantum" as a Model

***Laith Said Rawajfeh****

Ministry of Education, Amman, Jordan.

Received: 7/1/2024
Revised: 21/1/2024
Accepted: 30/1/2024
Published online: 19/12/2024

* *Corresponding author:*
asmalaith201@gmail.com

Citation: Rawajfeh, L. S. (2024). Quantum Physics and the Margin Revolution: Ahmed Abu Salim's Novel "Quantum" as a Model. *Dirasat: Human and Social Sciences*, *52*(2), 472–481.
https://doi.org/10.35516/hum.v52i2.6598

© 2025 DSR Publishers/ The University of Jordan.

This article is an open access article distributed under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY-NC) license https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

## Abstract

**Objectives:** This research addresses the theory of quantum physics and its narrative representations in the novel "Quantum" by Ahmed Abu Salim. The research aims to apply a precise micro-narrative reading of the novel's structure (artistic, thematic, and semantic) through a critical practice that benefits from microscopic achievements in the field of physics**.**

**Methods:** The research method examines the core physical concept of the novel "Quantum," focusing on portraying the margin's revolution as represented by the atom. It employs a micro-narrative approach to dissect the narrative structure into its smallest elements, aiming to assess the quantum value and the interplay between artistic and thematic structures. The study evaluates the influence of quantum theory on these structures.

**Results:**. Ahmed Abu Salim attempted in the novel "Quantum" to find a new Arab-Palestinian epistemology that rises against all forms of defeat imposed by rational realism and the colonial materialism falsifying history, summed up in the new Zionist historicity aspiring to erase the existence of the Palestinian human and heritage. He achieved all of this by employing the theory of quantum physics in his novel.

**Conclusions:** In "Quantum," quantum concepts form the basis of its artistic, thematic, and semantic construction, integrating seamlessly with narrative elements like setting, time, and characters. These elements are represented akin to atoms composing the visible world, suggesting a narrative perspective grounded in physical reference. Effective critical practice involves assessing their quantum value through the impact each element has on others, rather than studying them separately.

**Keywords:** Quantum Theory, Quantum Novel, Microsurgery, Margin.

# فيزياء الكم وثورة الهامش: رواية "كوانتوم" لأحمد أبو سليم نموذجًا

***ليث سعيد الرواجفة****

وزارة التربية والتعليم، عمّان، الأردن.

## ملخّص

**الأهداف:** يتناول هذا البحث نظرية الكوانتوم الفيزيائية، وتمثيلاتها السردية في رواية "كوانتوم" لأحمد أبو سليم، ويهدف البحث إلى تطبيق قراءة مايكروسردية دقيقة لبنية الرواية (الفنية، والموضوعاتية، والدلالية) وفق ممارسة نقدية تستفيد من المنجزات المايكروسكوبية في حقل الفيزياء.

**المنهجية:** اتبع البحث منهجًا يلاحق الفكرة الفيزيائية الرئيسة التي قامت عليها رواية "كوانتوم"، وهي فكرة إظهار ثورة الهامش حين تم تمثيله بالذرة، وهو منهج يسعى لرصد القيمة الكمومية لهذه الفكرة ومدى تأثيرها في البنية الروائية عبر مقاربة مايكروسردية تنبش دقائق هذه البنية، وتفككها إلى أصغر جزيئاتها، في محاولة لرصد قيمة (كم)، وأثر البنى (الفنية والموضوعاتية) في بعضها، ومدى تأثير نظرية الكوانتوم فيها.

**النتائج:** حاول أحمد أبوسليم في رواية "كوانتوم" إيجاد أبستمولوجيا عربية- فلسطينية جديدة، تثور على كل أشكال الهزيمة التي فرضتها الواقعية العقلانية، والمادية الكولونيالية المُزيفة للتاريخ، والتي يمكن اختصارها بالتاريخانية الصهيونية الجديدة الطامحة لمحو وجود الإنسان الفلسطيني وتراثه، وتحقق كل ذلك بفضل توظيف نظرية الكوانتوم الفيزيائية في روايته.

**الخلاصة:** إنّ معظم المقولات الكوانتية حاضرة في رواية "كوانتوم"، وقام بناؤها (الفني، والموضوعاتي، والدلالي) عليها، ولم يتم إسقاطها على الرواية من الخارج؛ فالمكان والزمان والشخصيات الروائية تم تمثيلها بالذرة من منظور سردي يستند على مرجعية فيزيائية، ولذلك لا يمكن للممارسة النقدية دراسة عناصر البنية الروائية بشكل منفصل؛ لأنها مثل الذرات المكونة للعالم الجهري بأكمله، وإنما أنجع الممارسات تكون عبر قياس قيمتها الكمومية من خلال (الأثر) الذي يتركه كل عنصر في العناصر الأخرى.

**الكلمات الدالة:** نظرية الكوانتوم، رواية كوانتوم، مايكروسردي، الهامش.

**المقدمة**

يُعدّ البحث في آليات التفكير، والتفسير، والتأويل، والبحث عن وسائل جديدة لدراسة المعرفة (الأبستمولوجيا) والوصول إليها (الفينومينولوجيا) من المباحث المهمة التي انشغلت بها كل فلسفة حداثية مسكونة بالشك، واللايقين، والتي أعادت إنتاج الأسئلة الأولى وطرحها من خلال مراجعة السرديات الكبرى، وكان من شأنها –آنذاك- تحصيل تسويغًا وتفسيرًا عقلانيًا مقنعًا للكيفية التي بدأ بها الوجود والغاية منه، وصولاً إلى الشك فيه، فتحولت –بعدئذٍ- طرق التفكير بالانزياح عن معظم ما رسَّخه البحث فيما مضى، إلى طرائق جديدة قائمة على الانطلاق بالبحث في الحاضر فقط، مما استدعى هدم معظم النتائج التي توصلت إليها المعرفة العقلانية، وتقويض اللوغوس، وعدم التسليم بالميتافيزيقا ومركزياتها التي أفرزتها، والتي باتت من المُسلمات في ذهنية الأفراد والعلماء سواء على صعيد البحث في الماضي أو في المستقبل، وهذه الثورة الفكرية قد تجلّت مع فلسفات مرحلة المابعدية مثل: (الكوانتيّة، والتفكيكيّة).

إنّ أيّة محاولة لربط نظرية الكوانتوم (quantum) الفيزيائية (الميكانيكية) بالكتابة السردية الأدبية (المتخيلة) ممثلة بجنس الرواية ستبدو وكأنها محاولة ضعيفة تطمح لجمع مجالين لا يجمع بينهما شيء؛ فالمجال الأول ميكانيكي ومادي بدقة كبيرة، أما الثاني فهو خيالي وعاطفي لأبعد مدى، ولكن بعد إنعام النظر في المبادئ الفلسفية لنظرية الكوانتوم من جهة، والبنية السردية والموضوعاتية وما يصاحبها من بنية دلالية وتأويلية للرواية عينة الدراسة من جهة أخرى، ستتبدد كل هذه المخاوف، وسيتبين أن القطيعة الأبستمولوجية بسبب الاختصاص ما هي إلا قطيعة شكلية بين حقلين: الأول في مجال الفيزياء، والثاني في مجال الأدب والكتابة السردية. لذا يرى الباحث أن قراءة أحدهما بواسطة الآخر ممكنة؛ لأنهما نتاج فكري توصل إليه العقل الإنساني في فترة حرجة يسكنها الشك في كل شيء، حتى في وجودها.

لا تهدف هذه الدراسة إلى إثبات وجود تأثير مباشر بين فيزياء الكوانتوم، وبين الأدب بشكل عام؛ فمسألة التأثير خاضعة لنسبية متفاوتة بتفاوت ثقافة الأديب العلمية، وطبيعة نصه المتخيل، والابتعاد عن الأحكام العامة هو ديدن هذه الدراسة. كما أنها لا تهدف إلى تدعيم نظرية الكوانتوم وغموضها على حساب الأدب، فهذا بكل تأكيد ليس حقلها، وإنما الفرضية الرئيسية التي ينطلق منها البحث هي الإيمان بوجود روابط بين هذه النظرية الفيزيائية (الكوانتوم)، وبين رواية (كوانتوم) لأحمد أبو سليم، ليس على مستوى العنوان؛ وإنما على مستويات أعمق مرتبطة بالبنية، والدلالة، والموضوع. كما أن سمات النظرية الكوانتية تتناسب –تمامًا- مع المتطلبات العقلانية والأبستمولوجية التي قدمتها الرواية، وفرضتها كوجود حقيقي في عالم متخيل يستحق دراسته وفق رؤية ومنهجية قد تكون مستنبطة من حقل الفيزياء على الرغم من التباين بين مجالات الاختصاص.

**1. نظرية الكوانتوم (العقل في مواجهة الوجود)**

بدأت صياغة نظرية الكوانتوم ببحث نشره ماكس بلانك (Max Planck) عام (1900م)، تبعه بمجموعة أبحاث نُشرت ما بين (1901م) و(1910م)، وموضوع أبحاثه النظرية هو عالم (الذرة)، مُركزًا على ظواهر معينة فيها مثل الطاقة والإشعاع (زيدان 1982: 13)، فقد ولدت نظرية الكوانتوم ضمن كفاح التوافق بين الضوء والمادة، والتي أمست بالأساس شاذة عن كل العلوم التي مضت من قبل؛ فقبل عام (1900م) كانت الفيزياء وصفة للتوقع بالمستقبل مع تأكيد جازم، وهذا يتناقض مع حركة الذرة، فلا شيء يمكن معرفته يقينًا، وكل ما نستطيع فعله هو توقع مساره المحتمل وموقعه النهائي المحتمل، وبينما تستند الكمية (الكوانتية) إلى اللادقة تستند بقية الفيزياء إلى اليقين (تشاون 2008: 37).

هناك فوارق جوهرية بين الفيزياء الكلاسيكية قبل نظرية الكوانتوم، وبين الفيزياء الحديثة مع نظرية الكوانتوم[1]، وهذا ما جعل من "الفيزياء الكلاسيكية كسترة المجانين" (أومنيس 2008: 188)، والمجانين -على حد تعبير أومنيس (Omnes)- هم الفيزيائيون الذين قيدتهم عقلانية الفيزياء الكلاسيكية، وأغلقت جميع المنافذ إلى بنية العالم العميقة، وذراته، وبذلك يكون "الذين يرغبون في الفهم ليسوا أقل خيالاً من أولئك الحالمين" (أومنيس 2008: 69) في معرفة الحقيقة. ومن ثم؛ إن ميكانيكا الكوانتوم من الناحية الفعلية هي الفيزياء بأسرها، وقد تكثفت في بضعة قوانين، ولهذا السبب يقال: إنها نظرية المعجزة (أومنيس 2008: 173)، ولكن هذه النظرية ظلت حتى الآن –على الرغم من نجاحاتها- مسكونة بمشكلات فكرية وفلسفية أدت إلى صعوبة فهمها، وجعلت قبولها عسيرًا (راي 2016: 18)[2]، مما دفع نيلز بور (Niels Bohr) للقول: "أي شخص لا يصاب بصدمة من نظرية الكم فإنه لم يفهمها" (جريبين 2010: 19).

---

[1] يمكن التمثيل على هذه الفكرة من الرواية عينة الدراسة حين قام (م.م) بتقديم تفسير ليعقوب الجابي عن سبب دراسته للفيزياء وتعمقه في الكوانتوم بقوله: "نحن نخدع أنفسنا كما فعل علماء الفيزياء في نهايات القرن التاسع عشر، حين كانوا يعتقدون أن بوسعهم تفسير كل شيء في هذا الكون، وأنهم امتلكوا المفاتيح، والقوانين، التي ربما قد توصلهم حتى إلى الذات الإلهية نفسها، ثم فجأة خرج عالم يُدعى ماكس بلانك، ليفسر ظاهرة غريبة تتعلق بطاقة الموجات الضوئية، لنكتشف بعد ذلك أن الكون كان أعمى، لا يفقه شيئًا مما يدور حوله، وأن الحقيقة أبعد بكثير مما كان العالم يعتقد، أعني دلالات الحقيقة، خصوصًا بعد أن جاء آينشتاين، وقلب مفهوم البشر عن المكان والزمان". (أبوسليم 2018: 289)

[2] يمكن التمثيل على هذه الفكرة بقول الراوي المشارك: "الكوانتوم هو شيء حقيقي تمامًا، مثبت تمامًا، موجود تمامًا، لكن العقل لا يستطيع أن يقرَّ به، أو يتقبله لأنه خارج منطق العقل. هذا يعني أن العقل أيضًا مدرب على منطق بعينه لا يتقبل غيره بسهولة أبدًا". (أبو سليم 2018: 204)

إنّ سبب الثورة على العقلانية الكلاسيكية في عالم الفيزياء هو أن "الطريقة التي ننظر بها إلى المقدس تجعلنا نراه في كل مكان من أرجاء الكون، ولا شيء البتة دنيوي تمامًا، ليست الدنيوية إلا وهمًا خادعًا نابعًا من جهالتنا، إنها غفوة العقل أو خبل الأفكار الزائفة" (أومنيس 2008: 314)، وهذا ما أكدَّه فيلسوف الوعي كن والبر (Ken Wilber) بقوله: "يوجد علم زائف مثلما يوجد دين زائف، والمعركة ذات الشأن فعلاً هي التي تنشب بين ما هو حق وزائف منهما، لا بين جنس العلم والدين" (راي 2016: 15)، وهذا يعني أن المعركة في عالم الفيزياء ليست بين العلم والدين، وليست بين المقدس والمدنس، وليست بين الفيزيقي والميتافيزيقي؛ إنما المعركة في إماطة اللثام المقدَّس عن الكون التي زرعتها ميتافيزيقا الدين في أعماق عقلانية الوجود، والتي تسببت في إيجاد غمامة أمام الواقع الحقيقي، وحصرت الدنيوية فيما يراه الفيزيائي بعين المقدّس، ويرفض أي مبدأ يتعارض مع ما يقدّسه.

فقد كانت نظرية الكوانتوم "منبوذة ومحرَّمة من آينشتاين وآخرين، وكان يقول: (إنّ الرب لا يلعب بالنرد) مشيرًا إلى النظرية التي تحكم العالم بواسطة تراكم مخرجات فرص عشوائية في الأساس لاحتمالات على المستوى الكمي" (جربين 2010: 17)، في إيمان منه أن الكوانتوم يعني تشكيك صريح في وجود خالق خيّر يُقدّر حركة الكون قبل حدوثه، وهنا الباحث ليس في معرض الحديث أو البحث في إيمان آينشتاين أو عدمه، إلا أن فلسفة آينشتاين كانت قد أقرَّت في معظم مواضعها أن الكون عبارة عن آلة عظمى محكمة التركيب لا تحتاج إلى خالق إلا لحظة الخلق فحسب، وهو ما درج في الفيزياء الكلاسيكية، إلا أن ستيفن هوكنغ (Stephen Hawking) عدَّ نظرية الكوانتوم "خطوة أولى نحو إدراك عقل الرب" (غرين 2005: 139)، مما يعني أن نظرية الكوانتوم تقول: إن هذه الآلة التي تحدّث عنها آينشتاين ليست محكمة بما يكفي لتكون مكتفية ذاتيًا بنفسها؛ بل بحاجة إلى مَن يديرها على الدوام، وعند هذه اللحظة يسقط استكبار، وينكشف جهل كل مَن يزعم أن الله فرضية (الطائي، م.، والصباريني، م.، وملكاوي، آ. 2012: 24).

ترفض نظرية الكوانتوم التمركز حول العقل (اللوغوس)، وتثور عليه وعلى كل النتائج التي توصل إليها، وتقوّض ميتافيزيقا الحضور، وتؤمن بوجود غائب مجهول يقبع في أعماق الذرة له أدوار مهمة في الكون همشه الجهل فيه وعدم معرفته، كما أن نظرية الكوانتوم لا تعترف بالأصل، وتنتقد فكرة الهوية والخصوصية، وتؤمن بالكلية والانسجام؛ لكن بشرط أن يتم تقويض الكل المنسجم وفهم ما فيه من الداخل، ومن أهم مبادئ نظرية الكوانتوم هو الانتشار أو التشتت عبر سلسلة لا نهائية من الاحتمالات، ولا تؤمن النظرية بالتكرارية والاسترجاع فتقوم بهدم جميع مبادئ الحتمية والسببية، وإحلال مبادئ الشك، وعدم اليقين، وظاهرة التعالق الذري، والصفة الموجية التحريرية بدلاً من تلك المبادئ، وكأن الحديث عن نظرية الكوانتوم هو عينه الذي جاءت به تفكيكيّة دريدا (Derrida).

**2. الإجراءات التطبيقية**

تروم الدراسة في جانبها التطبيقي إلى تقويض وإعادة بناء الخطابات السردية في رواية "كوانتوم" من منظور نقدي يدمج بين الدراسات الثقافية وفلسفة فيزياء الكوانتوم وأسسها التطبيقية، وذلك وفق إجراءات تعاين أركان بناء الرواية، وفلسفة السرد القائم على فكرة الكوانتوم وربطه بالإنسان العربي- الفلسطيني. وستكون الدراسة أمام تجلٍ عملي لإجراءات نقدية أكبر وأوسع من الرصد والتحديد إلى التحليل والتفسير والتأويل.

**2.1 من المايكروسكوبية إلى المايكروسردية**

تستعمل نظرية الكوانتوم جهازًا رياضيًا بالغ التعقيد للتعبير عن أحداث ميكروسكوبية مجهرية بالغة الصغر والدقة؛ حيث "يتم التعامل مع مقادير وعلاقات بلغة الكم، ينبغي أن نفهم أنه لا وجود لجسيمات أولية مادية أو حبيبات بالمفهوم التقليدي، فالعلماء لا يعاملونها كأشياء وإنما كأحداث، ولهذا أطلقوا عليها اسم (كم) وما يعنيه من مقدار، وليس كيف، فهي ليست جسيمات مادية، بقدر ما هي مقادير من الطاقة تدرس في السياق الكلي، فهي تعتبر كمّات... فكلما نسبر أغوار المادة يتبين لنا أن العالم الذري لا يتألف من أجزاء منفصلة، بل من شبكة علاقات معقدة" (تونسي 2019: 545).

وحين يتم الانتقال بالفكرة السابقة، ومحاولة تطبيقها على الرواية وفق الدمج بينها وبين علم السرديات الحديث؛ سنكون أمام عدم وجود لجسيمات مادية بالمفاهيم المتعارف عليها، بل سنكون أمام سلسلة (أحداث) مرتبطة ببعضها بشكل معقد، ولا يكتسب أي منها قيمته إلا بالمقدار (الكم) الذي ينتج عنه في سير الحركة السردية، والطاقة التي يمتلكها كي يتمكن من التأثير بباقي أركان البناء السردي. وهذه الأحداث وما ينتج عنها لا يمكن الوصول إليها إلا من خلال البحث الدقيق والعميق الذي يعاين ظلال الأحداث، ويربطها بالأنساق النسقية والسياقية للرواية؛ أي من خلال ما اصطلحت عليه الدراسة (المايكروسردية).

وبمعنى آخر؛ إذا كان بناء الرواية المتضمن للسرد والحكاية بمثابة عالم ذري كبير يتكون من جزئيات ذرية دقيقة مكونة له، عندئذٍ لا يمكن إدراك هذا العالم إلا من خلال النبش في أدق تفاصيله، وفهم طبيعة العلاقة المكونة له. ويمكن التمثيل على العالم المايكروسردي بالمعادلات التالية:

- رواية "كوانتوم" = العالم المجهري بأكمله.
- أركان بناء رواية "كوانوتم" = العناصر الذرية التي يتكون منها العالم المجهري.
- الركن بالمفهوم السردي = الحدث بالمفهوم الكوانتي.
- العملية المايكروسردية = البحث في قيمة (الحدث) بالمفهوم الكوانتي.

إن معظم المقولات الكوانتية، والمندرجة في المعادلات السابقة، موجودة في الرواية عينة الدراسة، وقام بنائها الفني والموضوعاتي عليها، ولم يتم

إسقاطها على الرواية من الخارج. ووظيفة الدراسة في هذا الموضع هي الكشف عن (قيمة= كمّ) كل ركن سردي في بناء الرواية وأثره بباقي الأركان، والتحكم بالتقنيات السردية، والكشف عن الرابط الذي جمع بينها، بغض النظر عن ظهوره المباشر، أو تخفيّه.

**2.2 القيمة الكوانتية للزمكان**

مسرح أحداث رواية "كوانتوم" هو فلسطين، وتحديدًا مدينة القدس، وفترتها الزمانية امتدت منذ أربعينات القرن الماضي قبل احتلال اليهود للقدس، مرورًا بحرب عام 1967م، وصولاً إلى نهاية التسعينات. وهذه الفترة من تاريخ فلسطين والقدس الحديث حساسة جدًا؛ لأنها شهدت نكسة العرب وهزيمتهم أمام اليهود، وسقوط القدس الشرقية في أيديهم. وتمازج الزمان بالمكان يمكن التعبير عنه بقول الراوي: "في القدس طبقات البشر مكدسة بعضها فوق بعض، تاريخ فوق تاريخ، أرواح تركض هنا وهناك، بوسعك لو دققت النظر أن تراها، وأرواح محشورة في شقوق الجدران، في الثقوب، وفي الأنفاق، تحت الأرض، مسجونة ربما منذ آلاف السنين" (أبو سليم 2018: 175). أحال قول الراوي إلى قيمة الزمان من خلال المكان (القدس)، والعكس، فكل إشاراته المادية اكتسبت قيمتها من تاريخ البشر وحضاراتهم التي توالت على هذه المدينة في فترات متعاقبة، وكأن أرواحهم وتاريخهم الحضاري والثقافي حبيس جدران وثقوب وأنفاق القدس، والذي ينظر بعين البصر لا يمكن له رؤية أرواح هذه الماديات، بسبب طغيان الواقع المؤلم، والانشغال باحتلال اليهود وجرائمهم، والتفكير بعقلانية الواقع زاد عن الحد، وطغى على التاريخ والحضارة، وأفضى إلى نزاع آني يسعى لفرض الوجود المؤقت بمعزل عن التاريخ.

إنّ العلاقة الملتحمة بين المكان والزمان في الرواية هي علاقة سطحية في مستواها الظاهر، لكن في أعماقها تحمل جدلاً جنونيًا يدفع إلى الثورة على التاريخ الحديث، ما بعد احتلال القدس، فيقول الراوي: "أي تاريخ بوسعه أن يحمل لعنة المدينة على كتفيه؟" (أبو سليم 2018: 214)، ويقول: "تبًا للتاريخ ما أوسخه" (أبو سليم 2018: 260)، وكأن التاريخ توقف لحظة احتلال اليهود لفلسطين والسبب في ذلك بيَّنه قول الراوي: "للاحتلال فلسفة عليك أن تتقنها كي تنتصر، أو على الأقل تخرج من سطوته عليك، أعني تتعلم كيف تتخلص من سطوته عليك، فأنت أمام عدو لم يسرق الأرض فقط، وإنما يحاول أن يسرقك أنت نفسك، تاريخك يعيد كتابته، يسرق الشجر، والحجر، والماء، والهواء، والطعام، وبيوت الله، وبيوت الشياطين" (أبو سليم 2018: 274). فالصراع على المكان هو صراع على التاريخ، وهو صراع وجودي يسعى الطرف الإسرائيلي إلى محو كل ما يخص الفلسطيني بالاستناد على أكاذيبه، وعلى قوته العسكرية (الكولونيالية). ومن هنا كانت الشرارة التي أشعلت سردية الرواية التي جاءت كي تثور على كل شيء عقلاني، وموجود خلال هذه الفترة الحرجة في فلسطين والقدس، يقول الراوي: "اليوم تختلط الأمور، وتتداعى كذبة الحقيقة، كذبة التاريخ، كذبة الواقع، كذبة الوجود، كذبة المنطق" (أبو سليم 2018: 357)، والمقصود –بكل تأكيد- ما تلا أربعينات القرن الماضي إلى يومنا هذا، فتخرج سردية الرواية بحدودها الزمانية من داخل الرواية لتشمل ما هو خارجها ولاحق لفتراتها. وهذا ما يؤكده الجانب الموضوعاتي لتوظيف التاريخ؛ فهذه الرواية لا تطمح إلى التوثيق والتسجيل بقدر ما تطمح إلى التفكيك والتقويض؛ تفكيك أسباب احتلال فلسطين وسقوط الجيوش العربية، وتقويض وجود الاحتلال الإسرائيلي.

ولنعيد تركيب ما سبق؛ المكان والزمان ملتحمان بالمستوى السطحي/الظاهر وفق ما جاءت به حركة السرد الحاملة للحكاية، كأنهما مجرد أركان بناء روائي ملتصقان معًا، ويسيران جنبًا إلى جنب، وتأثير (الكم) الأول يوافق تأثيره في الثاني، وتأثيرهما معًا متساوٍ في باقي أركان البناء الروائي. ولكن القراءة المايكروسردية تحيل إلى أن العلاقة ليست كما ظهرت في مستواها السطحي؛ بل حملت في داخلها صراعًا جنونيًا بين المكان والتاريخ، من شأن هذا الصراع تعرية تاريخانية الصهيونية الجديدة تجاه فلسطين والقدس، وكأن التاريخ قد توقف لحظة احتلال فلسطين، وحركة الزمان في المكان بعد ذلك التاريخ عبارة عن كذبة، وتزييف مستمد من الواقع والعقلانية التي تنظر بعين البصر وأغفلت البصيرة. وتشير الدراسة هنا أنها لا تتحدث عن حركة الزمان السردي المرتبط بالخطاب أو أسلوب الراوي؛ وإنما تتحدث عن الزمان (التاريخ) الذي بُنيت عليه أحداث الرواية وحكايتها وسرديتها وموضوعها.

ومن ثم، تستنتج الدراسة أن كوانتوم الزمان (التاريخ) لا يمكن قياسه مع كوانتوم المكان (فلسطين- القدس) في آن، علمًا أنهما كالذرة الواحدة في التحامهما، فقد توقف الزمان لحظة احتلال فلسطين، وتجمَّد المكان على الأرواح والحضارات التي مرَّت عليه قبل الاحتلال. وهنا ترصد الدراسة التطابق الأول في البناء الروائي مع نظرية الكوانتوم التي لا يمكنها قياس كمية ما يوجد في الذرة في لحظة واحدة.

**2.3 القيمة الكوانتية للشخصية**

لن تتبع الدراسة أنماط الشخصية مثل: (الشخصية المرجعية، والشخصية النامية، والشخصية المسطحة، والشخصية الرئيسية، والشخصية الثانوية) وغيرها؛ وإنما سيكون التركيز على القيمة الكوانتية للشخصيات من خلال أدوارها وأثرها في بعضها، وفي أركان البناء السردي الأخرى، علمًا أن رواية كوانتوم قامت على البطولة الجماعية، فكل شخصية كانت مُكمّلة للأخرى في الحركة وسرد الحدث، ولكن تفاوت تأثيرها في البناء السردي، والبناء الموضوعاتي. وهنا يمكن تقسيم الشخصيات إلى ضربين: الأول تأثيره ظاهر، وتوظيفه تقليدي. والثاني تأثيره أعمق مما هو ظاهر، وتحكَّم في البناء والأسلوب السردي، وهذا التأثير تسبب به تداخل هذه الشخصيات مع الجوانب الموضوعاتية للرواية، ولنظرية الكوانتوم.

يمثل الضرب الأول جميع الشخصيات التي كان توظيفها تقليديًا[3]، وخضع حضورها وحركتها لخطاب الحكاية، وصوت الراوي، ووجهة نظره التي يسرد منها، وامتثلت هذه الشخصيات لسردية الأحداث، فكان السرد ينقل العلاقة بين هذه الشخصيات، والحكاية توجه حركة السرد التي تطمح إلى رسم ملامح خطاب الحكاية ومقصديته الدلالية.

أما الضرب الثاني من الشخصيات، فهو الفريد والذي تحكَّم، ووجَّه، وأثَّر في حركة شخصيات الضرب الأول، وفعل نفس الشيء مع الزمان والمكان والحدث. شخصيات هذا الضرب هي المحورية في تأثيرها، والتي لا تقل قيمة عن شخصيات الضرب الأول في مستواها السطحي، لكن في مستواها العميق فرضت حضورها وأثرها على جميع أركان البناء الفني، والموضوعاتي.

إنّ هذه الشخصيات كانت نموذجًا على الهوية المستلبة من ذاتها، واستلاب هويتها هو تمثيل سردي لاستلاب الهوية الجمعية (الفلسطينية- العربية)، وفي هذا الموضع من الدراسة سيتم توضيح حالة الاستلاب على مستوى بناء الشخصية الذاتي الفردي، بوصف الشخصية ركنًا سرديًا فاعلاً في بناء الرواية الفني والموضوعاتي.

وأبرز هذه الشخصيات (أيوب) الذي فقد ذاته في لحظة فاصلة بين الحياة والموت، مما أدى إلى انفصال صوته السردي في الرواية بين صوته الحقيقي، وصوت (أل...هو) الغريب عنه، وبدأت سردية شخصية أيوب حين بدأ (أل...هو) بسرد ما حدث له، فيقول: "ما زلت تذكر تمامًا تفاصيل ذلك اليوم البعيد، حين حملك أبوك على حماره، وألقى بك في الصحراء، على مكب نفايات الدواء، وحيدًا، في العتمة، كي تموت هناك" (أبو سليم 2018: 26). هذا المشهد المؤلم بمثابة اللحظة الفاصلة التي تسببت في فقدان أيوب لذاته، وهويته، وصوته، وحياته؛ فقد ذاته حين لم يتجرأ على سرد ما حدث معه، وأخذ (أل...هو) على عاتقه السرد طيلة الرواية، وفقد هويته حين لم يتجرأ على العودة إلى (وادي الحزانى) بعد نجاته بمعجزة من الموت لا يعلم مغزاها، وفقد صوته حين أُصيب بتأتأة بعد إفاقته من غيبوبته، وفقد حياته حين عاش في الفراغ، يقول (أل...هو): "ثلاثون عامًا وأنت تدور حول نفسك، وتنتظر وحيًا لم يأت أبدًا، تتعلق بحبال الهواء، وتركض من فراغ إلى فراغ، ثم ها أنت تعود إلى النقطة ذاتها التي ابتدأ موتك منها، إلى الوادي، لتعترف، هكذا، ببساطة، أنك كنت تدور في دائرة من عبث، ضاع عمرك فيها بلا مقابل" (أبو سليم 2018: 28).

يمثل (أيوب) في الرواية بطلاً مأزومًا يعيش في نقطة وسط بين عالمين يرفضهما بشدة؛ الأول عالم حامل لثقافة مهزومة بفعل تراكمي ووراثي، والثاني عالم حامل لثقافة مهزومة بفعل واقعي فرضته الكولونيالية الإسرائيلية التي همشت الفلسطيني وسلبت حقوقه. ويمثل العالم الأول قول (أل...هو): "في كل مرة كان أبوك يدفع الثمن، يعاقبه السيد بسبب التقصير، ويضربه أحيانًا بالسوط، ما جعلك تكفُّ عن محاولاتك، وزاد من تلك النار التي تشتعل في قلبك، خصوصًا حين ضبطتهما متلبسين، هو، وخولة، في فراش أبيك، بعد أن أرسله السيد إلى يافا، وأرسلك مع رعاة الغنم، لكنك عدت متسللاً بعد أن شممت بالفطرة رائحة الخيانة... كنت تعرف تمامًا أنك لو أخبرته بما رأيت فلن تزيده إلا ألمًا وعذابًا، ولن يغير ذلك في الواقع شيئًا... لأنه ببساطة كان قد فقد قدرته على الاعتراض منذ زمن بعيد، منذ أن فقد القدرة على الكلام" (أبو سليم 2018: 128). فالضعف، والعجز، والذل، والخوف، والصمت، والاستسلام، صفات وجدها (أيوب) مفروضة على أبيه، وكأن القدر يُريد نقل (توريث) هذه الصفات إليه بالقوة.

وعلى الرغم من كل المآسي التراكمية التي وجدها (أيوب) مفروضة عليه بفعل وراثي من أبيه، إلا أنه لسبب لا يعلمه وجد نفسه في مواجهة مع واقعه من جهة، ومع ذاته من جهة أخرى، مما أدى إلى تخليه عن جزء من ذاته أو تنكره لذاته من خلال إعطاء زمام الأمور لـ(أل...هو) الذي كان أجرأ منه، وملأ فراغ الشعور بالفردية والعجز والاغتراب ولعنة الأصل. ويرى الباحث أن (أل...هو) يمثّل هوية (أيوب) العميقة غير القادر على إظهارها، علمًا أن (أيوب) توحد مع (أل...هو) في نهاية الرواية[4].

وتلاحظ الدراسة أن مواصفات بناء شخصية (أيوب) في علاقتها التراثية الوراثية التي فرضتها التراكمية الزمانية، قريبة جدًا من المواصفات التي بُنيت عليها العلاقة بين الزمان والمكان في الرواية -أسلفت الدراسة الحديث عنها- فأيوب يشفق على أبيه، ويثور على كل ما ورثه منه ووجده ماثلاً أمامه، وعلاقة الأب والابن من ناحية زمانية تدل على زمان وجيز وقريب. وهو ما يناقض فخر (أيوب) بجده، يقول (أل...هو): "لو لم يقتل العثمانيون جدك وهو فار من القدس، بعد أن كان قاضيًا يضربون به المثل في الحكمة والزهد، لو لم يدركوه وبقي على قيد الحياة" (أبو سليم 2018: 52). فيمكن الاستنتاج من هذه العلاقة أن (أيوب) ليس مجرد شخصية عاشت عوالم مضطربة في كل ما يحيط بها من الخارج، وفي داخلها؛ بل هي شخصية ممثلة -رمز- عن الكم الجمعي الفلسطيني في زمان احتلال القدس-فلسطين، تاريخ (أيوب)، وحياته، وهويته، ووجوده، وذاته، وصوته، كلها توقفت مع أبيه المُسيطَر عليه

(3) شخصيات: يعقوب الجابي، وعبد الرحمن، وأبو زهير، وسارة، وسعاد، وسمية، وأنور، والشيخ العدوي، وأسعد الخليلي، وعزيز، وإنصاف، وحارس العوري، وإسحق عوز، وبوظريف، وأحلام غالب العبد، وإبراهيم، وجدال، ورعد، وفرج، ومدام صوفيا، ومردخاي، ومناحيم جاد، ونوح، وجابي، وأبو عابد الحوت، وياسمين، والسيد، وخولة، ونهان.

(4) إن السياق السردي لحكاية (أيوب) فيه تناص مع قصة النبي أيوب عليه السلام، ليس على مستوى الاسم فقط؛ وإنما على مستويات الحبكة، وحركة الأحداث المأساوية، وعلى رأسها رمي كلاهما في مزبلة نتيجة الإصابة بالمرض، وتخلي كل شيء عنهما بعد أن كانا ذا عز ومال وجاه. وهنا المقصود بشخصية أيوب السردية في الرواية بما تمثله من دلالات تحيل إلى الكم الجمعي الفلسطيني. وكأن الروائي ربط حكاية النبي أيوب عليه السلام وصبره، مع حكاية الشعب الفلسطيني الذي ما زال يعيش في مرحلة الصبر ولم ينل جائزة الانتصار بعد.

والعاجز، ولكنها موجودة مع جده، وهو ما ينطبق على القدس-فلسطين، قبل احتلالها، الشيء الذي اختزله قول (أل... هو) مخاطبًا (أيوب): "الحرب ذبحتك، لا، الهزيمة هي التي ذبحتك" (أبو سليم 2018: 276). وقوله: "لا وقت تعده بالساعة، أو بالدقيقة، أو بالسنة، أو باليوم.. لا وقت في فراغك المبهم، ولا جسدك قابل للمس، ولا بصرك هو الذي يرى ما ترى.. كأنك خارج الحياة" (أبو سليم 2018: 302). وهو ما ينطبق على القدس-فلسطين، وعلى الشعب الفلسطيني فكلاهما خارج التاريخ، وخارج الحياة، كل ذلك بعد الاحتلال.

ارتبطت شخصية (أيوب) بشخصية أخرى غريبة في وجودها، ووظيفتها على المستوى النسقي داخل الرواية وسرديتها، وعلى المستوى السياقي خارج الرواية، وهي شخصية (نجمة) التي فقدها (أيوب) وسرد قصتها (أل...هو) بقوله: "كان غياب نجمة أول الغياب، ولم يكن عابرًا لأنه أرّخ لكل ما بعده...وصولاً إلى غياب أمك، ثم موتك أنت مرة على مكب نفايات الدواء في الصحراء. نجمة شتلة الحزن التي زُرعت فيك ذات يوم، وراحت تكبر معك. نجمة حد العذاب، نافذة تطل منها على الخراب... ما زلت تذكر آخر نظرة في العينين، لحظة الاستسلام، وصمتها وهي تمد يديها إليك تدعوك إلى محفل الموت، كانت تدرك أنك عاجز عن إنقاذها من براثن الموت لكنها مع ذلك كانت تمد يديها نحوك، وتدعوك إليها.تناديك. رأيت بعينيك كيف جرفها السيل، ومضت، وغابت، ويدها ما تزال ممدودة في الهواء... وأنت واقف في مكانك" (أبو سليم 2018: 49).

الصدمة كانت حين التقى (أيوب) بـ(نجمة) حين ذهب مع (م.م) لزيارة (الأستاذ حكمت)، في دعوة للانضمام إلى حركة القوميين العرب، فكانت الصدمة التي سردها (أل...هو) بقوله: "آخر ما كنت تتوقعه يومذاك، أن ترى نجمة التي أخبرتك بأنها ليست نجمة...كان ذلك آخر ما يمكن أن تتوقع حدوثه...من أية سماء هبطت تلك ال...هند؟ أو النجمة إن شئت؟ من أين جاءت؟ كيف تداخلت هند في نجمة، فجأة، وصارتا امرأة واحدة؟" (أبو سليم 2018: 90). إنّ صدمة (أيوب) تسبب فيها تداخل شخصية (نجمة) الميتة التي جرفها السيل، مع شخصية (هند) الحية ابنة (الأستاذ حكمت)، يذكره (أل...هو) بقوله: "كنت قد سمعت منه [م.م] عن هند من قبل، ومن الناس، لكنك لم تكن قد رأيتها" (أبو سليم 2018: 89). وسبب شهرة (هند) هو تميّزها عن باقي الناس بصفات جعلتها منبوذة ومكروهة لدى كثير منهم، يقول والدها (الأستاذ حكمت): "كانت الحقيقة موجعة حد الفجيعة، وأصبحت هند سببًا في كشف المستور، وخراب البيوت، ما جعل البعض يتهجم على البيت، ويحاول إيذاءها، بعد اتهامها بالكفر، والزندقة، والكذب، والدجل"(أبو سليم 2018: 23).

ولتركيب العلاقة الشائكة في سردية الشخصيات السابقة، يجب ربطها بعوالم (أيوب/ الشعب الفلسطيني)؛ العالم الأول [قبل الانفصال عن الحياة- قبل الاحتلال] كان في علاقة مع (نجمة) ومن أبرز صفاتها أنها كانت تعرف كل ما يتعلق به جيدًا، ويرى الباحث أن (نجمة) هي رمز للتاريخ المجيد والحقيقي قبل احتلال فلسطين، وهي التراث الناصع الذي انشغل عنه الإنسان الفلسطيني في صراعه مع المحتل، وانجرف هذا التراث بسيل الصراع مع الكولونيالية الإسرائيلية. وفي العالم الثاني [عالم الفراغ والضياع- بعد الاحتلال] اجتمع (أيوب) مع (هند) التي حملت صفات (نجمة)، وهيئتها الخارجية، ولكن الاختلاف يكمن في أن الثانية تتنبأ بالمستقبل، وهنا نجد أن (أيوب) في صراع كبير بين التراث/ التاريخ الميت = (نجمة)، وبين الحاضر غير المنطقي، والذي يتنبأ في المستقبل = (هند). إنّ حالة الانفصام التي يعيشها (أيوب/ الشعب الفلسطيني) في هذه الرواية هو عبارة عن مستوى عميق جدًا في سردية خطاب الرواية، وحكايتها، يقبع فيها علاقات شائكة تحيل إلى هوامش خفية طمح الروائي أبو سليم إلى استنفارها وإظهارها على السطح من خلال استثمار ما جاءت به نظرية الكوانتوم، وتحديدًا ظاهرة التعالق (Entanglement).

تعد ظاهرة التعالق من "أكثر الظواهر إرباكًا في عالم الكم المحير، حيث يوجد جسيمان تفصل بينهما مسافة قد تكون كبيرة جدًا، ربما حتى ملايين أو مليارات الأميال، إلا أنهما مرتبطان معًا على نحو غامض، فما يحدث لأحدهما يتسبب على الفور في تغيير يطرأ على الجسيم الآخر" (أكزيل 2008: 9)، وهو ما حدث بالفعل في بناء شخصيات الرواية؛ فشخصية (أيوب) تعالقت مع شخصية (أل...هو)، وشخصية (نجمة) تعالقت مع شخصية (هند)، وشخصية (مؤمن) تعالقت مع شخصية (م.م)، وشخصية (مشعل) تعالقت مع شخصية (روبن هود)، وشخصية (بنيامين كوهين) تعالقت مع شخصية (إفرايم بنيامين آرون). كل هذه الشخصيات انقسمت إلى قسمين؛ الأول ظاهر يعلمه الضرب الأول من الشخصيات التقليدية في العالم السردي المتخيل. والثاني باطن لا يعلمه إلا القارئ من خلال مراقبته لحركة السرد، وتعرية الشخصيات لذاتها وبث اعترافاتها. كما أن الشخصية الأولى في جزئها الظاهر/ المعلوم خاضعة للتراث والواقع المفروض. أما الثانية المستحدثة فهي شخصية ثائرة على الجزء الأول ولا تؤمن به (شخصية مُفارِقة لذاتها).

ومن ثم؛ إن هذه الشخصيات مرتبطة بشكل لا ينفصل في كل لا يتجزأ، مثل الذرة، بحيث تدرك كل واحدة منها ما حدث/ يحدث لجزئها الآخر، ويتأثر سلوكها وعاطفتها وتفكيرها، بما يحدث أو حدث في قسمها الآخر. كما أنّ هذه الشخصيات أثّرت ببعضها بعضًا في البناء الروائي وفق ما اقتضاه السرد، وخطاب الحكاية. هي علاقة تعالق شائكة لا يمكن رصدها وفهم ما فيها إلا من خلال المايكروسردية التي انتهجتها الدراسة. وهنا يرصد الباحث ثاني تطابق في البناء الروائي مع نظرية الكوانتوم؛ من خلال ظاهرة التعالق الكوانتي.

**2.4 القيمة الكوانتية للحدث**

يُمكن تصنيف استهلال رواية "كوانتوم" بأنه استهلال ذو بنية حدثية غير كاملة (حدث ثانوي/ ناقص)؛ فقد بدأت الرواية بحدث هدم بيت فلسطيني

استمرت قصته لأكثر من خمسة وعشرين عامًا[5]. وسردية الرواية الظاهرة تمحورت حول حكاية هذا البيت، ومحاولة الإسرائيليين فك شيفرة المعادلات الكوانتية الموجودة على جدرانه، مما دفعهم إلى جمع الركام بعناية وحرص، وإعادة تركيب هذه المعادلات من جديد لفهم ما كان يصنعه (الأستاذ حكمت) و(م.م)، وغايتهما من كتابة المعادلات. وبذلك يكون الهدف من هذا الاستهلال التأكيد على وجود حدث كامل (نووي) يمثل لبّ الرواية، وتحكّم في تحبيكها، وتبئيرها، وسرديتها، ومقصديتها. فكان الاستهلال نهاية الرواية التي لم تبدأ، وبدايتها التي انتهت؛ النهاية التي توقفت عندها حكاية كل الشخصيات وتحديدًا الأستاذ حكمت و(م.م)، والبداية التي أخذت تسترجع وتسرد كل ما جرى في القدس-فلسطين قبل هذا الحدث الناقص. بداية تطمح إلى إيجاد سرد جديد يختلف عن ذلك الذي انتهى عنده.

ويُذكر أن النقاد ميزوا بين "الحادثة النووية (Kernel)، أي التي تمثل نواة الرواية، والأحداث التابعة أو الدائرة في فلكها (Satellite)... كما أن بارت قد ميز بين الأحداث العارضة (Catalyses)، والأحداث النووية" (عناني 2003: 27)، مما يحيل إلى وجود أحداث أساسية، وأخرى ثانوية؛ وربما تكون أحداث ظاهرة، وأخرى غائبة غير مرئية.

إن الحدث الكامل (النووي) هو احتلال القدس- فلسطين، هذا الحدث بمثابة لبّ الرواية عينة الدراسة، ويدور في فضائه نسق وسياق النص الروائي في آن؛ أي أن سياق الرواية المادي مرتبط بحدث حقيقي دعّم النص بثقافة لها مرجعيات متحققة في ذهنية المتلقي، ونسق الرواية وتنسيقها الداخلي لم يخضع لسياقها التاريخي حين فرض وجود سردية حاملة لموقف هامش مقاوم وثائر غير خاضع كما خضع العالم السياقي. بمعنى آخر؛ إن سياق الرواية الخارجي قد خضع للاحتلال الإسرائيلي، وكولونياليته العسكرية، بينما نسق الرواية الداخلي كان على النقيض من ذلك، فهذه الرواية غير معنية بكتابة الهزيمة العربية- الفلسطينية وتوثيقها كما أسلفت الدراسة، ولكنها تطمح إلى إيجاد طريقة جديدة في التفكير لفهم ما حدث، وكيفية تحقيق الانتصار واسترداد الحقوق، وتحطيم المركزيات التي سلَّم بها الواقع والعقل والمنطق فقط لأن تلك المركزيات لها وجود مادي وملموس على الأرض. كما أن سردية الرواية حاولت من خلال الانطلاق من حدثها النووي تقديم صورة جديدة للبطل (روبن هود- مشعل ياسين)، وهو الهامش الغائب، الذي لا يتوقعه العدو، بنفس الطريقة التي هُزم بها العرب حين ظنوا أنه لن تهزم جيشوهم أمام حفنة من اليهود في ست ساعات، وكأن هذه الرواية تحاول الإجابة عن تساؤل: "مَن بوسعه أن يواجه (إسرائيل)؟" (أبو سليم 2018: 179).

وانطلاقًا من الحدث النووي، والموقف منه، أخذت عملية الحبك من خلال تنظيم الأحداث (الرئيسية والثانوية)، والأحداث (الظاهرة والمخفية) تسير وفق حركة سردية مسكونة بثنائيات الانتصار والهزيمة، في صراع كبير مع الذات قبل أن يكون مع المحتل. وهو الشيء الذي مكَّن شخصيات الرواية من التوقف طويلاً أمام ذواتها الداخلية، والتفكير مليًا في علاقاتها مع أنفسها، ومع كل ما أحاط بها لفهم ما جرى/ يجري لها، وكانت النتيجة أن الهزيمة الحقيقية هي هزيمة الذات، وخضوعها للمنطق والوجود المفروض عليها بقوة السلاح. إنّ فكرة الحبك في رواية كوانتوم بشكل أساسي هي ما لخصه أومنيس بقوله: "أن نفهم بطريقة مختلفة؛ إذا كانت جذور المنطق في الواقع بدلاً من أن تكون في العقل، سيكون من الممكن أن نجيب عن السؤال: لماذا يفكر عقلنا بالطريقة التي يفكر بها" (أومنيس 2008: 25). والدليل على ذلك الكم الهائل من الاحتمالات والفرضيات التي صاحبت معظم المشاهد السردية في الرواية والتي يمكن اختزالها بـ(لو كان كذا... لما حدث كذا) والعكس، وهنا يرصد الباحث ثالث تطابق في البناء الروائي مع نظرية الكوانتوم؛ من خلال الحبك الذي مازج بين الحدث النووي (احتلال القدس- فلسطين)، وأحداث الرواية التي طمحت لفهمه، وتعريته بطريقة جديدة انطلقت من فهم الذات أولاً لتحقيق الانتصار.

**2.5 القيمة الكوانتية للإنسان العربي- الفلسطيني (الهامش خارج المركز)**

لَعِبَتْ الأيديولوجيا أدوارًا بارزة في الصراع العربي- الفلسطيني/ الإسرائيلي، وكانت مركزية نشطة في جسد النص الروائي عينة الدراسة، تداخلت في علاقات شديدة التشابك مع أركان البناء الروائي (الزمكان، الشخصية، الحدث) بقصد إنتاج بنية عميقة بمفهوم غريماس (Greimas)، أو بنية دالة بمفهوم غولدمان (Goldman)، هذه البنية (العميقة/ الدالة) هي التي شكلت البناء الموضوعاتي للرواية، مما استدعى قراءة مايكروسردية للنص جعلت المقاربة قريبة من السوسيونصية (Sociotexual) المعنية بالداخل النصي، وأركانه السردية المشكِّلة للخطاب الروائي؛ وبذلك كانت قراءة النص "وسيلة الكشف عن الأيديولوجيا التابعة للنشاط المنتج" (الغذامي 2005: 17). وفي نفس الوقت لم يكن بالإمكان عزل النص –عينة الدراسة- عن محيطه الخارجي حين تعلَّق الأمر بدراسة الهوية والذات والوجود، حيث أن البنية الروائية (الفنية والموضوعاتية) شديدة الاقتران بالبنية الثقافية التي كانت مشفَّرة في الرواية تشفير نظرية الكوانتوم في عالم الفيزياء، ولا سبيل لفك هذه الشيفرة سرديًا إلا من خلال فهم الأسس الفلسفية للنظرية في عالمها الفيزيائي.

(5) البيت قديم جدًا لا يُعرف مَن الذي بناه، وقد امتلكه (ياسين ياسين) جدّ (م.م)، ومنذ أن غادر البيت مُرغمًا بسبب الحرب صار يُعاني من الأرق، وقد كانت الأرض تقع في المنطقة الحرام التي تفصل بين الفلسطينيين واليهود، وكان محظورًا على العرب واليهود دخولها، وعندما حملوه إلى الطبيب... أخبرهم أنه مصاب بالاكتئاب، فوصف له دواء، لكنه لم ينم. وبقي على هذه الحال حتى زحف في الليل بهدوء عبر خطوط التماس، وحين وصل إلى البيت بكى، ثم مضى يتفقده، غرفة غرفة، وحجرًا حجرًا، حتى شعر بالتعب، فنام. استمر على هذه الحال أكثر من شهرين، يتسلل إلى بيته وينام، حتى أمسك به اليهود، وسخروا منه، وعذبوه، واتهموه بالجنون... مما كسر الجد، ومات بقهره وهو يراقب أرضه وبيته من بعيد. (أبو سليم 2018: 15- 17).

إن "القانون أعمى لا يرى إلا ما يُريد" (أبو سليم 2018: 189)؛ القانون في عالم الفيزياء، والقانون الذي قيَّد حياة الإنسان العربي- الفلسطيني، هذا القانون استند إلى مرجعيات وصل إليها الإنسان من خلال حواسه، ومع تراتبية الزمان أصبحت مُسلمَّات هيمنت على عقله، ومن ثم على سلوكه الانهزامي. تساءلت إحدى شخصيات الرواية بقولها: "هل تعتقد أننا الآن نمتلك مرجعيات؟ أظن أننا نحاول أن نقنع أنفسنا بأنها مرجعيات... كي نشعر بالاطمئنان، فقط، تلك فطرة الإنسان، وكل المرجعيات تعتمد على الحواس، والسؤال إذن: ماذا لو كانت الحواس تخدعنا، ماذا سيحلُّ بالمرجعيات التي نتحدث عنها؟ ماذا نريد من الحياة؟ لماذا وُجدنا أصلاً؟ ولماذا نختلف على أصغر التفاصيل؟ هل الحرب هي الأصل لا السلم؟ هل الموت هو الأصل لا الحياة؟ ومن أين يأتي الوعي؟ ما هو الوعي؟ ما هي شيفرة الموت؟ والحياة؟ ما هي الولادة، وما هو الموت؟ وهل نحن الصورة أم الأصل؟" (أبو سليم 2018: 44). تعدّ هذه الأسئلة جزءًا مهمًا من فلسفات ما بعد الحداثة مثل نظرية الكوانتوم، والتفكيكية اللتان ثارتا على جميع المرجعيات، والمركزيات، واللوغوس، ومثل هذه المقولات هي التي غذَّت الجانب الموضوعاتي في سردية الرواية -مثلما غذَّت البناء الفني- وأسهمت في إعادة إنتاج وقراءة أيديولوجيات الهيمنة، والسيطرة، والقوة، والتبعيّة، والكولونيالية الإسرائيلية، والإمبريالية العالمية، وفق حركة مغايرة عمّا هو مفروض على الإنسان العربي- الفلسطيني خارج الرواية في ثقافة النص.

بمعنى آخر؛ عملت الرواية عينة الدراسة على إيجاد أيديولوجيا بالاعتماد على فلسفة نظرية الكوانتوم، تكون مُجابِهة للأيديولوجيا المفروضة على الإنسان العربي- الفلسطيني، والهدف منها الوصول إلى طريقة يمكن من خلالها إعادة التفكير بطرائق جديدة ومختلفة، والتنبه إلى الجوانب المظلمة، والهوامش الغائبة، وفهم جديد للواقع والذات والوجود والعالم، وعدم الخضوع لسلطة المدركات الحسية والمركزيات التي أفرزتها، والتي لا تحيل إلا إلى المرجعيات العقلانية، وهو ما تساءل عنه الراوي المشارك بقوله: "لماذا يُفكر العقل بالطريقة التي يُفكر بها، وهل بوسع العقل أن يتنصل من العقل، من تراكم المُدركات الحسية عبر آلاف السنوات التي شكلت أسس معرفتنا للحياة؟" (أبو سليم 2018: 125). ومن ثم، إن "النص ينزع إلى إنتاج خطاب أيديولوجي؛ بل إنه يتجاوز هذا الحد ليسهم في إعادة بناء أو إنتاج أنساقه الأيديولوجية"(عليمات 2015: 16)، وهذه الأنساق تراوحت في رواية كوانتوم بين الظاهرة والمضمرة؛ الظاهرة على المستوى السردي والبناء الفني، والمضمرة في أعماق البناء الموضوعاتي، ويمكن الوصول إليها من خلال عمليات القراءة التأويلية اللانهائية، التي من شأنها النبش في أنساق الحاضر والذاكرة المخاتلة.

أول ما قامت به رواية "كوانتوم" هو استحضار كل أشكال أيديولوجيا الهزيمة، وهي الأيديولوجيا المركزية خارج النص الروائي (ثقافة النص)، ومن ثم معالجتها بهدف إيجاد أيديولوجيا الهامش التي يقع على عاتقها مجابهة تلك المركزية، وفق تسلسل تصاعدي بدأ بهزيمة الذات/ الإنسان العربي- الفلسطيني، وصولاً إلى الانتصار على هذه الهزيمة. قال الراوي المشارك: "كيف يمكن أن تتحرر من نير الاحتلال وهو يسبقك بأشواط، وأنت عبد رغباتك، وماضيك، وموروثك الذي يقيدك بأغلال، وجهلك، وتخلفك؟ ثم تعتقد أنك تعرف، وأنت لا تعرف، وتعتقد بأنك قادر، وأنت لست قادرًا، وتعتقد بأنك موجود، وأنت لست موجودًا في حقيقة الأمر، أنت مجرد ظلّ الظلّ، خيال الخيال، فكرة الفكرة؟" (أبو سليم 2018: 193). يحيل المستوى السطحي/ الظاهر لقول الراوي إلى عملية جلد قاسية للذات، وتثبيط للمعنويات؛ ولكن تستقر في المستوى العميق مقولة: "الحقيقة ليست أكثر من وهم مقنع" (أبو سليم 2018: 260)، وهي أكبر مقولات نظرية الكوانتوم. فكل عمليات الجلد، والتوبيخ، والقسوة الواردة في المستوى السطحي/ السردي، هي ليست كذلك على المستوى الموضوعاتي العميق، هي عمليات معالجة وتفكيك وتقويض لأيديولوجيا مركزية عقلانية لم تترك مجالاً لأيديولوجيا الهامش أن تتحرك. والهامش هو الإنسان العربي- الفلسطيني. ويمكن أن تُوصف هذه العملية بنفض الغبار عن الهامش، ودفعه للأمام، وبتعبير زهير عبيدات: "يقوم خطاب المقاومة على النقد الذاتي الذي هو أشبه بالدعوة إلى النظر في المرآة، وهو نقد ينبع من الحب لا النقمة" (عبيدات 2019: 55).

وظِّفَ الإنسان العربي- الفلسطيني في البناء الروائي توظيفَ الفوتون والإلكترون في الذرة، وهذه الوظيفة أو الحركة تم الكشف عنها مع نظرية الكوانتوم التي دفعت جميع العلماء إلى طرح تساؤلات طرحتها إحدى الشخصيات بقولها: "كيف يمكن للفوتون أو الإلكترون أن يشغل أكثر من حيّز في اللحظة ذاتها، أن يدخل كل الاحتمالات الممكنة، ثم فجأة، حين تتدخل عين المراقب، يأخذ احتمالاً واحدًا فقط، وكأنه يتهرب من رقابة البشر، وكأنه يعرف، ويفكر، ويخطط في نفسه لنفسه؟ وكيف يصبح المراقب جزءًا لا يتجزأ من الكينونة التي لا تستقيم بدونه؟" (أبو سليم 2018: 206)، إنّ الإنسان العربي- الفلسطيني ثائر بطبعه، ولا يمكن لأي سلطة أن تخضعه، أو تراقبه، أو ترصد حركاته وتتوقعها، أو تروضه، أو تسيطر عليه. وعلاقته بالمراقب/ المركز علاقة متجذرة في كينونة سلوكه، وتدفعه للتصرف بعقلانية أحيانًا، وبجنون أحايين أخرى.

لم، ولن يفهم المراقب/ المركز تفكير أو طريقة التفكير التي تتحكم بسلوك الإنسان العربي- الفلسطيني (مفارقة السلوك الحركي)، وكل ما يقوم به، وجميع احتمالاته وتوقعاته ستفشل، وهو ما أكده قول الراوي المشارك: "الفوتون الفلسطيني لم يخضع لعين المراقب، كل ذلك وهم يعتقده المراقب في لحظة ما من الزمن، المراقب هو المخدوع، لأنه لا يعرف بعد أن الفوتون الفلسطيني بوسعه أن يشغل حيزين في لحظة الزمن ذاتها، وأنه موجود في مكان آخر، في أماكن أخرى إن شئت، بآلاف آلاف الاحتمالات، رغم عين المراقب، يسلك سلوكًا لا تعرفه، ولا يمكن لك أن تتوقعه، ستراه، فجأة، ستراه، وستدهش من قدرته على البقاء، تمامًا مثل شجرة اجتثوها وتركوها ساقًا عارية، ميتة، جرداء، وإذ بها فجأة، دون سابق إنذار، تورق ورقًا أخضر، وتعود من الموت. فليسقط الموت" (أبو سليم 2018: 308-309). إنّ هذا الخطاب يمثل لبّ البناء الموضوعاتي الذي فكك وقوَّض أيديولوجيا المركزية العقلانية

الواقعية خارج النص، والتي تقول: إنّ (إسرائيل) بامتلاكها الأرض، والقوة الكولونيالية، يعني أنها امتلكت فلسطين، يقول الراوي المشارك: "هل (إسرائيل) حقيقة بالفعل؟ هل أصبحت كذلك بعد أن هزمت العرب، كل العرب، واحتلت ما تبقى من فلسطين؟ هل جعلها العالم حقيقة رغم أنوفنا جميعًا؟" (أبو سليم 2018: 234). وهذا ما جاءت رواية "كوانتوم" لتنفيه، ففلسطين هي فلسطين، والإنسان العربي- الفلسطيني تأثيره في هذه المعادلة أكبر بكثير من تأثير أي قوة/ مركزية، فقط هو بحاجة لإعادة التفكير بكل شيء، حتى في نفسه، والإيمان بقدرته وقوته.

قدّمت رواية "كوانتوم" حلولاً لبعض المشكلات، ومن بين القضايا التي وضعتها الرواية على طاولة التشريح والتفكيك، قضية البطل الذي يفتقده الإنسان العربي- الفلسطيني، قال الراوي المشارك: "عنترة بن شداد ما عاد بطلاً في مفهوم هذا العصر، البطل عالمٌ هزيل الجسد، يضع نظارتين ولا يرى إلا المعادلات... أرأيت كيف حسمت قنبلتا هيروشيما وناغازاكي أمر حرب العالم كله؟ آينشتاين بمفهوم هذا العصر هو البطل يا صديقي، أتفهم؟ علينا أن نفهم ذلك جيدًا كي نخرج من هذه الحفرة التي وجدنا أنفسنا فيها، وصرنا ندور في قعرها مثل دود أعمى" (أبو سليم 2018: 271)، إذن، أهم شروط الانتصار، وسُلَّم الخروج من بوتقة الهزيمة هو العِلم، والعالِم هو البطل الحقيقي في هذا العصر، فمتطلبات العصر اختلفت، وموازين القوى انقلبت لصالح مَن يمتلك زمام العلم، وفي مبنى (M) التابع للجامعة العبرية مثالاً جيدًا وظفته الرواية لتبيان أحد أهم أسباب انتصار (إسرائيل) –وحدها- على العرب مجتمعين.

**الخاتمة**

لقد انتهى البحث إلى كشف جملة أمور تخص توظيف نظرية الكوانتوم الفيزيائية في رواية "كوانتوم" لأحمد أبو سليم لعل أهمها:

1. إنّ كوانتوم الزمان (التاريخ) لا يمكن قياسه مع كوانتوم المكان (فلسطين- القدس) في آن، علمًا أنهما كالذرة الواحدة في التحامهما؛ فقد توقف الزمان لحظة احتلال فلسطين، وتجمَّد المكان على الأرواح والحضارات التي مرَّت عليه قبل الاحتلال، وقد تحقق التطابق بين بناء الزمكان السردي ونظرية الكوانتوم من خلال توظيف الكاتب للقانون الذي ينص على استحالة قياس كمية ما يوجد في الذرة في لحظة واحدة.
2. شخصيات الرواية متعالقة ببعضها بشكل لا ينفصل في كل لا يتجزأ، مثل الذرة، وقد تحقق التطابق بين الشخصية السردية ونظرية الكوانتوم من خلال ظاهرة التعالق الكوانتي.
3. أهم ما قامت به رواية "كوانتوم" هو استحضار كل أشكال أيديولوجيا الهزيمة، وهي الأيديولوجيا المركزية خارج النص الروائي (ثقافة النص)، ومعالجتها بهدف إيجاد أيديولوجيا الهامش التي يقع على عاتقها مجابهة تلك المركزية والثورة عليها، وفق تسلسل تصاعدي بدأ بهزيمة الذات، وصولاً إلى الانتصار على هذه الهزيمة.
4. وظِّفَ الإنسان العربي- الفلسطيني في البناء الروائي توظيفَ الفوتون والإلكترون في الذرة، وهذه الوظيفة أو الحركة تم الكشف عنها في نظرية الكوانتوم.
5. أكدت الرواية أنه لم ولن يفهم المراقب/ المركز طريقة التفكير التي تتحكم بسلوك الهامش، أو كل ما يقوم به، وجميع احتمالات (المراقب/ المركز) وتوقعاته ستفشل.

.

**المصادروالمراجع**


أكزيل، أ. (2008). *التعالق: أكبر لغز في الفيزياء*. (ط1). القاهرة: المركز القومي للترجمة.

أومنيس، ر. (2008). *فلسفة الكوانتم: فهم العلم المعاصر وتأويله*. (ط1). الكويت: سلسلة عالم المعرفة (350).

تشاون، م. (2008). *نظرية الكمية لا يمكن أن تؤذيك: دليل إلى الكون*. (ط1). بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون.

تونسي، م. (2019). الرياضيات والفيزياء المعاصرة: انسجام العقل والمادة. *مجلة جامعة منتوري للعلوم الإنسانية*، (52)، 541 – 551.

جريبين، ج. (2010). *البحث عن قطة شرودنجر: الفيزياء الكمية والواقع*. (ط2). أبو ظبي: كلمة وكلمات عربية للترجمة والنشر.

راي، أ. (2016). *فيزياء الكوانتم: حقيقة أم خيال*. (ط1). الإسماعيلية: دار الكاتب للنشر والتوزيع.

زيدان، م. (1982). *من نظريات العلم المعاصر إلى المواقف الفلسفية*. (ط1). بيروت: دار النهضة العربية.

أبو سليم، أ. (2018). *رواية "كوانتوم"* . (ط1). عمّان: دار فضاءات للنشر والتوزيع.

عبيدات، ز. (2019). *منطق الخطاب: المركز والتابع (قراءة في السرد الكولونيالي)*. (ط1). عمّان: دار المعتز للنشر والتوزيع.

عليمات، ي. (2015). *النقد النسقي: تمثيلات النسق في الشعر الجاهلي*. (ط1). عمّان: الأهلية للنشر والتوزيع.

عناني، م. (2003). *المصطلحات الأدبية الحديثة: دراسة ومعجم إنجليزي- عربي*. (ط3). القاهرة: الشركة المصرية العالمية للنشر.

الغذامي، ع. (2005). *النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية العربية*. (ط3). الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.
غرين، ب. (2005). *الكون الأنيق: الأوتار الفائقة والأبعاد الدفينة والبحث عن نظرية نهائية*. (ط1). بيروت: المنظمة العربية للترجمة.
الطائي، م.، والصباريني، م.، وملكاوي، آ. (2012). مفهوم السببية في الفيزياء المعاصرة وعند المتكلمين المسلمين. *المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية*، 8 (2)، 1 – 30..

**References**

Abu Salim, A. (2018). *The novel "Quantum"*. (1st ed.). Amman: Dar Fadaat for Publishing and Distribution

Akzel, A. (2008). *Attachment: Aker's Mystery in Physics*. (1st ed.). Cairo: National Center for Translation.

Al-Ghadhami, A. (2005). *Critica culturală: o lectură a modelelor culturale arabe*. (3rd ed.). Casablanca: Centrul Cultural Arab.

Alimat, Y. (2015). *Categoricl Criticism: Representations of patterns in pre-Islamic poetry*. (1st ed.). Amman: Al-Ahlia Publishing and Distribution.

Al-Taie, M., Al-Sabarini, M., & Al- Malkawi, A. (2012). *The concept of causality in contemporary physics and among Muslim theologians. Jordanian Journal of Islamic Studies*, 8 (2), 1-30.

Anani, M. (2003). *Modern literary terminology: a study of an English-Arabic dictionary*. (3rd ed.). Cairo: Egyptian Publishing Company.

Chown, M. (2008). *Quantity Theory Can't Hurt You: A Guide to the Universe*. (1st ed.). Beirut: Arab House of Science Publishers.

Gribbin, J. (2010). *Searching for Schrödinger's Cat: Quantum Physics and Reality*. (2nd ed.). Abu Dhabi: Arabic Words and Words for Translation and Publishing.

Obaidat, Z. (2019). *The logic of discourse: the center and the subordinate (a reading of the colonial narrative)*. (1st ed.). Amman: Dar Al-Moataz for Publishing and Distribution.

Omnis, R. (2008). *Quantum philosophy: understanding and interpreting contemporary science*. (1st ed.). Kuwait: World of Knowledge Series (350).

Ray, A. (2016). *Quantum physics: fact or fiction*. (1st ed.). Ismailia: Dar Al-Kateb for Publishing and Distribution.

Tunisian, M. (2019). Contemporary mathematics and physics: the harmony of mind and matter. *Mentouri University Journal of the Humanities*, (52), 541–551.

Green, B. (2005). *The Elegant Universe: Superstrings, Hidden Dimensions, and the Search for a Final Theory*. (1st ed.). Beirut: Arab Organization for Translation.

Zidane, M. (1982). *From theories of contemporary science to philosophical positions*. (1st ed.). Beirut: Arab Renaissance House.